المِجَنَّة في الطاعون والوباء لإلياس اليهودي بن إبراهيم الإسباني

دراسة وتحليل

د. شريف علي الأنصاري(*)

ملخص البحث

على الرغم من الاهتمام الكبير الذي شهده التراث العربي المخطوط من البحث والدراسة، فإنه ما زال هناك الكثير من المخطوطات التي باتت في طي النسيان، والتي لم يُشَر إليها ولا إلى صاحبها بكلمة واحدة في بحث علمي.

والمخطوط الذي بين أيدينا «المِجَنَّةُ في الطاعون والوباء» -للأسف- كان حظه كحظ مؤلفه لم يُكتب عنه كلمة سواء بالإيجاب أو السلب، وكأن صاحبه كان نسيًا منسيًّا. ومن ثم، وجب أن نتناوله بالبحث والدراسة، خاصة أنه يتحدث عن الطاعون والوباء، وشرح أسباب حدوث كلٍّ منهما، وطرق حفظ الصحة من الوباء والطاعون، فكان لزامًا علينا أن نعرف كيف فهم وتعامل الأطباء في ظل الحضارة العربية الإسلامية مع الوباء والطاعون؟ هل كانت آراؤهم العلمية نتيجة للتفكير العلمي المحض أو كان يشوبها نوع من الأساطير والخرافات؟ ولن يتسنى لنا ذلك إلا بعد دراسة هذا المخطوط دراسةً علمية والتعريف بمؤلفه.

(*) كبير باحثين بمركز المخطوطات، مكتبة الاسكندرية.

Al-Mijanna fī al-Tā‘ūn wa al-Wabā’ by Ilīās al-Yahūdī b. Ibrāhīm al-Aspānī: An Analytical Study

Dr. Sherif Ali Al-Ansary(*)

Abstract

Despite the great scholarly interest in written Arab heritage, many Arabic manuscripts, along with their authors, have fallen out of any academic attention into oblivion. This was the case of the manuscript in hand, al-Mijanna fī al-Tā‘ūn wa al-Wabā’ (The Shield from Plagues and Epidemics), which, unfortunately, suffered the same fate of its author, being neglected from any written record or scientific work. Thus, it became incumbent to examine and study it, particularly as it tackles the causes and prevention of plagues and epidemics. The study examines how physicians in the Arab-Islamic civilization understood and dealt with epidemics and plagues, and whether their opinions were purely scientific, or were influenced by superstition and fantasy. Moreover, the study gives special attention to introducing its author.

(*) Senior Researcher at the Manuscripts Center, the Bibliotheca Alexandrina.

المِجَنَّة في الطاعون والوباء:
المخطوط المنسي كصاحبه

نقف اليوم أمام عالِم عربي لم تُكتب عنه كلمة واحدة في تاريخ العلم عامة، والعلم العربي خاصة، هو إلياس اليهودي ابن إبراهيم الإسباني. ونقف كذلك على مخطوطة لم تُدرس أو تُحقَّق، أو حتى يُشار إليها في مؤتمر أو محاضرة، أو بحث علمي محكّم أو حتى غير محكّم. هذه المخطوطة هي «المِجَنَّةُ في الطاعون والوباء»، والمقصود بالمِجَنَّة أي الموضع الذي يُستتر فيه، أو الأرض الكثيرة الجن، مَجَن الشيء مُجونًا: صَلُبَ وغَلُظَ، ومنه اشتقاق الماجن لصلابة وجهه وقلة استحيائه[1].

ومن ثم، يقصد المؤلف بالعنوان: الأرض التي يُكثر بها الطاعون أو الوباء، أو المكان الذي تختفي فيه أسباب الطاعون والوباء، وهو ما أراد الحديث فيه في هذه المخطوطة. وعلى الرغم من أهمية المخطوطة كما سيتضح بعد قليل، فإنها لم تلقَ اهتمامًا من أيٍّ من الباحثين سواء في الشرق أو الغرب! قد يظن القارئ أن السبب الرئيس راجع إلى ندرة نسخ هذه المخطوطة، لكن يتضاعف التعجب والتساؤلات إذا علمنا أن هناك العديد من النسخ في غير موضع من مكتبات العالم، وهو ما سنعرضه بعد قليل.

هل كان انصراف الباحثين عن هذا العالِم ومؤلفاته راجعًا إلى أنه غير مسلم؟! إذا كانت الحضارة العربية الإسلامية في أوج تقدمها لم تنظر إلى مثل هذه التساؤلات، ولم تنادِ بها، ولم تلتفت إليها؛ وإذا كان المعيار الرئيس هو جودة العمل والإخلاص فيه بغض النظر عن الدين؛ فلماذا نلتفت نحن معشر العلماء المعاصرين إلى مثل هذه الدعاوى والنداءات الطائفية والدينية؟! حقيقة تعلمتها من دراستي لتاريخ الحضارة وفلسفتها: عندما تكون الحضارة قوية، يصبح العلماء مثقفين وأقوياء علميًّا، ولا يلتفتون لمثل هذه المشكلات الصغيرة، والعكس عندما

(١) **لسان العرب**، ابن منظور، طبعة جديدة اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ج١٣، (مادة مَجَنَ): ٣٢.

تكون الحضارة ضعيفة؛ تظهر على الساحة تفاهات المسائل وسفاسف الأمور، وأصبحت تأخذ الكثير من تفكيرنا ووقتنا، وتشغل جزءًا كبيرًا من عقولنا.

ولكي يتسم بحثنا هذا بالموضوعية، فلقد ألزمت نفسي بالمنهج التحليلي في دراستي لهذا النص المخطوط وهذا العالم، معتمدًا في ذلك على النقد والمقارنة. إلا أنني واجهت بعض المشكلات، منها أولًا: ندرة المصادر والمراجع التي تتحدث عن عالمنا إلياس بن إبراهيم الإسباني، وثانيها: أنني بذلت قصار جهدي في الحصول على النسخة الثالثة من تركيا، وبعد طول بحث وعناء ومراسلات وتوصيات لم يُجبني سوى صدى صوتي! فاكتفيت بالنسختين اللتين سوف أتناولهما بالعرض في أثناء بحثي هذا.

(١) اسم المؤلف

هو إلياس اليهودي ابن إبراهيم الإسباني، على حسب ما ورد في متن المخطوطة[٢]. ويبدو أنه تعلم الطب على يد أهله وأقاربه، وذلك بناءً على ما ذكره هو، يقول: «فلما وصلت بقدر جهدي لتدقيقات عباراتهم وتعمّقات إشاراتهم، أدمتُ المـُدَارسَةَ العلمية مع أهلي»[٣].

ولا تذكر المراجع والمصادر عنه شيء، وكأن الرجل كان نسيًا منسيًّا. ونستطيع أن نتبين ملامح من ترجمته من خلال ذكره للسلطان بايزيد محمد خان[٤]، وأنه كان يغدق عليه كثيرًا من الأموال

(٢) **المجنة في الطاعون**، (ق ١ب).

(٣) المصدر السابق، (ق ٢أ).

(٤) أبو نصر بايزيد خان الثاني ابن محمد الفاتح ابن مراد العثماني: هو ثامن السلاطين العثمانيين، ولد ١٦ رمضان سنة ٨٥١ هجرية (١٤٤٧م)، وتوفي في الأول من ربيع الأول سنة ٩١٨ هجرية (١٥١٢م)، وتقلد الحكم منذ عام ١٤٨١م، عرف عنه أنه كان يؤلف الشعر والموسيقى، ويتقن فن الخط العربي. وكان أكبر أولاد أبيه السلطان محمد الفاتح. حكم في عهد أبيه مقاطعة أماسيا. تولى السلطنة بعد أبيه بعد أن نازعه أخوه «جَمّ» عليها. حصلت خلافات في عهده بين دولته والدولة المملوكية، وتحاربت الدولتان حربًا تم إبرام صلح بعدها.
وصلت الفتوحات في عهده لدولة البندقية التي انتصر عليها، فاستنجدت بملك فرنسا والبابا، فقامت حروب صليبية بين الطرفين. ظهرت في عهده دولة روسيا سنة ٨٨٦ هجرية، وأرسلت له سفيرها عام ٨٩٧ هجرية. أُجبر من قبل الإنكشارية في آخر حياته على التنازل عن الحكم لابنه سليم الأول سنة ٩١٨ هجرية، وهي نفس السنة التي توفي فيها. (**الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط**، علي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط١، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م: ١٦٣ وما بعدها).

والعطايا، وله عنده مكانة رفيعة، مما جعل إلياس الإسباني يذكره بكثير من عبارات التبجيل قائلًا: «وخدمتُ بتلك البضاعة القليلة بوضع رأسي إلى تراب ذلك الباب، هو كعبة مرادات جملة الطلاب، وبتقبيلي بقلب صادق ذلك الرقاب، هو مقصد كافة أولي الألباب، وتوجهت بمسح وجهي إلى عتبة خليفةٍ خَلّفهُ الله في الدوران على سلاطين الزمان... أبو النصر السلطان ابن السلطان سلطان بايزيد بن محمد خان»(٥).

وقد أهدى مؤلَّفه هذا إلى السلطان بايزيد بن محمد خان، وكان شائعًا إهداء العلماء للمؤلفات العلمية للحكام والسلاطين، وتضمين أسمائهم في هذه المؤلفات تخليدًا لهم، وتمجيدًا لاهتمامهم بالعلم والعلماء، ومن أمثلة ذلك الذخيرة الخوارزمية لخوارزم شاه والزيج السلطاني والزيج الحاكمي. وهذا الموضوع يطول الحديث فيه، لكني آثرت الإلماح إليه هنا.

(٢) مؤلفاته وإنتاجه العلمي

على الرغم من ندرة ما ورد عن إلياس بن إبراهيم الإسباني من معلومات، إلا أنني -بفضل الله- توصلت إلى ثلاثة مؤلفات من مؤلفاته:

أ- **كتاب إظهار الفلاسفة**: أحال عليه الإسباني في أثناء حديثه في المخطوطة، فذكر: «وقد استوفيت هذا البحث في كتابي المُسمَّى بإظهار الفلاسفة»(٦).

ب- **شرح القانون في الطب، لابن سينا**: وأحال إليه إلياس بن إبراهيم الإسباني في غير موضع من المخطوط، ويبدو أنه كان يهتم بكتاب القانون؛ فيذكر: «وقد فصّلنا في شرحنا في كتاب الرابع من القانون»(٧).

ج- **المِجَنَّة في الطاعون والوباء**: وهو موضوع البحث.

(٥) المصدر السابق، (ق ٣أ، ب).
(٦) المصدر السابق، (ق ٢٦ب).
(٧) المصدر السابق، (ق ٣٢ب).

ومن الملاحظ أن جميع مؤلفات إلياس بن إبراهيم الإسباني لم تظهر للوجود حتى الآن، وقد نالت حظ ونصيب مؤلفها، فلم يُكتب عنها ولا عنه كلمة واحدة في بحث علمي -وفقًا لمعلومات الباحث. (صفحة أخرى محزنة ومشينة من موسوعة التراث العربي والعلماء العرب والمسلمين!).

(٣) أهمية المخطوط

تبدو أهمية مخطوط «المجنة في الطاعون والوباء» خلال عدة نقاط نوجزها فيما يلي:

أولًا: اهتمام إلياس بن إبراهيم بالحدود، أي تعريفات الأشياء، حتى يتم توحيد المصطلحات بالتعبير المعاصر اليوم، وذلك قبل أن يتكلم عن أسباب الطاعون وعلاماته والوقاية والعلاج منه؛ فبدأ في الباب الأول بتعريف دقيق لكلٍّ من الوباء والطاعون، فيذكر: «اعلم أن الوباء: فساد وعفونة تعرض لجوهر الهواء، بحيث يصل إلى أرواح الحيوانات والأخلاط المجاورة للقلب يوجب هلاكهم. والطاعون: ورم أو بثور مع تلهب شديد مؤذٍ جدًّا مجاوز المقدار، وحوله أسود أو أخضر أو يحمر سريعًا»(٨).

وفي بداية الباب الثاني يورد تعريفًا لمنصور الحكيم -ولعله أحد أطباء عصره- قبل الحديث عن علامات الحميات، فيذكر: «الباب الثاني: في علامات الحميات الوبائية. اعلم أن منصور الحكيم يسمي الحمى الوبائية بالحمى الخادعة؛ لأنه يخدع الأطباء؛ لأنها لا تستقر بحالةٍ واحدةٍ»(٩).

ثانيًا: يعكس المخطوط أننا أمام طبيب بارع بكل المقاييس، وإن لم نكن نعرف عنه شيئًا؛ فنجد إلياس بن إبراهيم أثناء وصفه الدقيق عن العلامات القريبة للحمى الوبائية، يذكر: «وأما العلامات القريبة المصدقة لهذا المرض، فهي أن المريض يجد في باطنه حرارة مفرطة، ولكن لا توجد في ظاهره، ويكون نَفَسُهُ عظيمًا مُتواترًا، ويجد عطشًا شديدًا مع جفاف اللسان، وله قلق

(٨) المصدر السابق، نسخة تشستربيتي، (ق ١٩٤أ، ب)، اعتمد الباحث على نسخة تشستربيتي برقم ٣٦٧٦ م. ك. مج ٦؛ لأن النسخة الأولى تنقصها هذه الورقة.

(٩) النص المخطوط، (ق ٨ب).

واضطراب عظيم. وقد يكون معه التهوّعُ والقيء، ويخرج بالقيء أشياء سمجة، والنبض أكثره صغير متواتر، وقد يكون معه إسهال صفراءٍ»[١٠].

لم يتوقف إلياس عند هذا الحد بل وصف مخرجات المريض بالحمى الوبائية قائلًا: «وما يخرج من العرق والبول والبراز والقيء منتن الرائحة، وقد يكون معه سعال يابسٌ، وقد يلزمه الغشى، وقد يكون معه هذيانٌ واختلاط، والسهر المفرط، والوجع فيما يجاور القلب. واعلم أن بول هؤلاء يدل على هذه الحمى دلالةً صحيحةً، وقد يكون رقيقًا أبيض، وقد يكون أسود، وقد يكون بوله مثل بول الصحيح، وإذا كان كذلك تدل على قرب الموت»[١١].

ثالثًا: تضم المخطوطة بين عباراتها شهادة حق من الأطباء النصارى على اهتمام أبي علي ابن سينا -المتوفى ٤٢٨ هجرية- بالتجريب[١٢]، وأنه كان لا يكتب علاج الأمراض إلا بعد تجريب العلاج وتتبع أحوال المريض، فيذكر: «واعلم أن الأطباء المتقدمين يختصرون في كتبهم في علاج هذا المرض غاية الاختصار، وخصوصًا منهم الشيخ أبو علي الذي هو رئيس الأطباء، فإنه في قانونه يختصر عند ذكر علاج هذا المرض، ويطوّل في ذكر علاج كل مرضٍ سواه، مع أن هذا المرض كثير الوقوع وكثير الضرّر، وبعض الأمراض قليل الوقوع وقليل الضرر، فالمناسب أن يطول علاجه غاية التطويل.

وأجاب عن هذا حُكماء النصارى: بأن أبا علي مع وفور علمه وكمال فضله، كان لا يكتب في علاج كلِّ مرض إلا بالتجربة الكثيرة، وتتبع أحوال ذلك المرض... وأما مرض الطاعون فلما كان فيه مخافة السراية كان لا يزور المريض بمرض الطاعون، ولا يرسل إليه خادمًا، وإنما كتب ما كتب في علاجه بمقتضى عقله وكياسته، فاختصر لقلة اطلاعه بحقيقة الحال في هذا المرض»[١٣].

(١٠) المخطوط، (ق ٨ب، ٩أ).

(١١) المخطوط، (ق ٩أ).

(١٢) يعتبر التجريب من الأمور المهمة في المنهج العلمي، وكثيرًا ما وُصِمَ العلماء العرب المسلمون بافتقارهم للمنهج التجريبي، وهناك الكثير من المؤلفات المجحفة لإسهامات العلماء العرب والمسلمين بناءً على هذا المعيار، وفي مقابل ذلك التمجيد والتهليل لعلماء الغرب ومنهجهم العلمي القائم على التجريب وما يلزم ذلك من خطواته وهي: الملاحظة، وفرض الفروض، والتأكد من صحة الفروض (التجربة)، وصياغة النتائج في قانون علمي.

(١٣) النص المخطوط، (ق ١٤أ، ب).

كما تظهر مدى دقة وكفاءة الشيخ الرئيس ابن سينا الذي يتتبع أحوال المرض، من البدء حتى الذروة وانحطاط المرض أي شفاء المريض، كما أنه لا يزور المريض ولا حتى يرسل إليه خادمًا، وذلك لعلمه أن هذا المرض مُعدٍ.

رابعًا: يروي لنا إلياس بن إبراهيم عن الوباء والطاعون الذي وقع في إسبانيا وكيفية الشفاء لمن أصيب به، فيذكر: «وأقول: وقع في بلاد إسبانيا الوباء العظيم مع الطاعون، وأكثر مَن يشرب ماء لحم الفروج كان يُردّ إلى الصحة، ومن يمسك ولا يأكل شيئًا من ذلك فيهلكه»(١٤). وهو ما نصح به جميع الأطباء في الوقت الحاضر بضرورة شرب كثير من السوائل؛ وذلك للمحافظة على الصحة من الوباء، ومَن أصيب بالوباء فعليه الاهتمام بالأطعمة وشرب السوائل؛ لتعويض جسم المريض بما يفقده من سوائل.

خامسًا: أورد إلياس بن إبراهيم تفسيرًا علميًّا منطقيًّا؛ حيث ذكر أن حدوث الوباء والطاعون راجع إلى صعود الأبخرة من الأرض نتيجة الأشعة المنعكسة من الأجرام السماوية، فيذكر: «إن من المعلوم أن الأجرام السماوية وشعاع الكواكب الواصل إلى الأرض يخرج منه الأبخرة والأدخنة، وإذا كان الكواكب العلوية مقابلة للسفلية يخرج من الأرض أبخرة غليظة شديدة لم يكن للهواء قوة تُحلِّلُها؛ لكثرتها أو لغلظتها... لم تكن تحلله يتعفن الهواء.

فالقول الذي نُقل من الأفاضل من أنه يتولد من الأجرام السماوية الحرارةُ فمسَلّم، لكن يحصل بسبب تلك الحرارة الأبخرة والأدخنة الغليظة، وبسببها يحصل الرطوبة في الهواء، فيحصل العفونة، فالأجرام السماوية يحصل منها الحرارة أولًا، وبالذات ويحصل الأبخرة منها ثم يحصل الرطوبة والعفونة ثانيًا»(١٥).

سادسًا: اختتم إلياس بن إبراهيم حديثه عن الوباء والطاعون وكيفية الوقاية منه بقوله: «والمناسب أن يُغسل اليد والوجه وسائر الأعضاء بالخلّ وماء الورد، ويُغرغر أيضًا بهما، هذا كافٍ

(١٤) النص المخطوط، (ق ٢١ب).
(١٥) النص المخطوط، (ق ٢٥أ، ب).

في حفظ صحة هذا المريض وعلاجه من الأغذية والأشربة والطلاء والضماد والبخور والشموم... هذا هو الذي وجدته بالتجربة في هذا المرض العظيم»[١٦].

وهو ما أكده العلم الحديث، وهو تطهير الأيدي دائمًا والأسطح، وأن تجعل فمك وحلق الإنسان دائمًا رطبًا حتى لا يعلق به أي فيروس، وأكد إلياس الإسباني أنه اعتمد على التجربة قبل إيراد هذه الآراء في رسالته كما هو واضح من الفقرة السابقة.

سابعًا: المؤلفات: ذكر المؤلِّف في هذه المخطوطة أسماء العديد من المؤلَّفات، ونسبة هذه المؤلفات للمؤلفين، منها ما هو معروف، ومنها ما هو مجهول لدينا. ومن ثم، فهو هنا يكشف اللثام عن الكتب التي هي مجهولة لدينا[١٧]، فيذكر: «لما رزقني الله تعالى معرفة علم الأبدان الذي صحة الإنسان، بإعطاء التوفيق للوصول إلى خدمة أطباء الزمان، في كثير من البلدان، ومطالعة الكتب المعتمَد عليها للحكماء المحققين من المتقدمين والمتأخرين، مثل:

- كتاب فيديميا، وكتاب الأمراض الحارّة، وكتاب تقديم المعرفة لأبقراط.
- وكتاب أصناف الحميّات، وكتاب صناعات الكبير، وكتاب الأغذية لجالينوس.
- وكتاب الحميّات لإسحاق اليهودي.
- والحاوي لزكريا الرازي.
- ورسائل مروان بن زُهر.
- وقانون الشيخ[١٨].
- وكليات ابن رشد الفاضل القرطبيّ، وغيرهم من اليهود والنصارى»[١٩].

(١٦) النص المخطوط، (ق ٢٢أ).

(١٧) آثرت هنا ذكر الفقرة التي ورد بها اسم المؤلف؛ وذلك لتتميم الفائدة، ودقة التوثيق.

(١٨) يقصد بالشيخ هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري، ويلقب بالشيخ الرئيس (٣٧٠ - ٤٢٨هـ)/ (٩٨٠ - ١٠٣٧م) (معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤ه/ ١٩٩٣م، ج٣: ٦١٨؛ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ج٢: ٢٤١، ٢٤٢؛ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م، ج١: ٣٠٨).

(١٩) المجنة في الطاعون، إلياس بن إبراهيم الأسباني، (ق ١ب، ٢أ).

- وذكر أن لأرسطو مقالة الزلزلة، فيذكر: «قال رئيس الفلاسفة أرسطو في مقالة الزلزلة»(٢٠).
- «وقال أشيدروس الحكيم في كتاب بطوء الشيخوخة»(٢١).
- «كما قال جيدوا الحكيم(٢٢) ذكر اسم أحد الفلاسفة الأطباء».
- «قال جالينوس في شرحه لفصول الفاضل أبقراط»(٢٣).
- «هكذا قال جالينوس في مقالةِ جيد الكيموس»(٢٤).
- «كما قال جالينوس في كتاب ترياق القيصران»(٢٥).
- «وقال إسحاق اليهودي أيضًا في كتاب الحميات»(٢٦).
- «فمروي عن علي بن عباس في كتب العنصر»(٢٧).
- «وأيضًا مروي عن بطليموس، وهو رئيس الحكماء الهندي، في علم الهيئة في كتاب المحيط»(٢٨).
- «وقد استوفيت هذا البحث في كتابي الـمُسمى بإظهار الفلاسفة»(٢٩).
- «مروي عن أرسطو في كتاب علاماته العُلويّة»(٣٠).
- «مروي من جالينوس في كتاب الحمّيات، ومن الرازي في مقالة الطاعون»(٣١).
- «قال جالينوس في كتاب المزاج»(٣٢).
- «جالينوس في كتاب صناعة الصغيرة»(٣٣).

(٢٠) المجنة في الطاعون، (ق ٤ب).
(٢١) المجنة في الطاعون، (ق ٧أ).
(٢٢) المجنة في الطاعون، (ق ٧أ).
(٢٣) المصدر السابق، (ق ٩أ).
(٢٤) المخطوط، (ق ١٢أ).
(٢٥) المخطوط، (ق ١٢ب).
(٢٦) المخطوط، (ق ١٤أ).
(٢٧) المخطوط، (ق ٢٤أ).
(٢٨) المخطوط، (ق ٢٤ب).
(٢٩) المخطوط، (ق ٢٦ب).
(٣٠) المخطوط، (ق ٢٦ب).
(٣١) المخطوط، (ق ٢٦ب).
(٣٢) المخطوط، (ق ٢٨أ).
(٣٣) المخطوط، (ق ٢٨ب).

- «كلام جالينوس في كتاب الحميات»[٣٤].
- «قال أرسطو في كتاب العلامات العُليا»[٣٥].
- «وقد فصّلنا في شرحنا في كتاب الرابع من القانون»[٣٦].
- «وهذا مروي من جالينوس في كتاب ماء الأمير»[٣٧].
- «جالينوس حقق في مقاله الترياق[٣٨]»[٣٩].

(٤) وصف النسخ

(أ) نسخة المكتبة الخاصة

نسخة جيدة، كتبها محمد الطبيب في ولاية بودين[٤٠]، بقلم نسخي معتاد واضح، بعضها مشكول، في أواسط شهر شعبان المعظم سنة ست وتسعين وتسعمائة. تضم المخطوطة ستًّا وثلاثين ورقة (الورقة صفحتان) من القطع المتوسط، تضم كل صفحة ثلاثة عشر سطرًا، ويضم كل سطر ثماني كلمات تقريبًا، كتبت العناوين بقلم مغاير، ومن ثم فهي غير واضحة في النسخة المصورة، تنقص المخطوطة بمقدار ورقة بعد الورقة الخامسة، وهو ما ظهر بالدراسة وقراءة سياق النص، وتم استكمال النص من نسخة تشستربيتي، وأشرت إلى ذلك، كلٌّ في موضعه.

(٣٤) المخطوط، (ق ٣٠أ).
(٣٥) المخطوط، (ق ٣٢أ).
(٣٦) المخطوط، (ق ٣٢ب).
(٣٧) المخطوط، (ق ٣٤ب).
(٣٨) الترِّياق (Theriac): هو الّدرياق، اسم يوناني لدواء مُرَكَّب تركيبًا صناعيًّا، من شأنه إذا ورد على بدن الإنسان تقوية الروح الحيواني والحرارة الغريزية، وحِفْظ الصِّحَّة، وإزالة المرض، والتخلص من السموم الحيوانية والنباتية والمعدنية.
(انظر: معجم المصطلحات العلمية في التراث الإسلامي، د. أحمد فؤاد باشا، مركز تحقيق التراث العربي، ط١، القاهرة، ١٤٣٤ه = ٢٠١٣م، مادة ترياق: ٥٩؛ كتاب الماء: أول معجم طبي لغوي في التاريخ، أبو محمد عبد الله بن محمد الصحاري الأزدي، حققه د. هادي حسن حمودي، وزارة التراث القومي والثقافة، ط١، سلطنة عمان، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م، ج١، مادة ترق: ١٩٤ وما بعدها؛ مفاتيح العلوم، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، تقديم د.جودت فخر الدين، دار المناهل، ط١، بيروت - لبنان، ١٤١١هـ= ١٩٩١م: ١٦٤).
(٣٩) المخطوط، (ق ٣٥أ).
(٤٠) تقع ولاية بودين في دولة المجر حاليًّا، وألحقت بالدولة العثمانية تحت اسم ولاية بودين سنة ١٥٤١م.

بأولها وبآخرها نُقول باللغة التركية، وعليها تعليقات، انتهى المؤلف من تأليفه للمخطوطة في أوائل شعبان المعظم من شهور سنة خمسة عشر وتسعمائة في بلدة قسطنطين.

أولها: الحمد لله الذي شرح صدور الأطباء بعلم الأبدان، ونوّر قلوبهم بإخراج عفونة البُخار والدخان، ليكونوا مصلحين لأحوال سائر الحيوان، وخاصة لمصالح الإنسان... وبعد؛ فيقول أضعف العبيد... إلياس اليهودي ابن إبراهيم الإسباني، لـمّا رزقني الله تعالى معرفة علم الأبدان... للوصول إلى خدمة أطباء الزمان، في كثير من البلدان، ومطالعة الكتب المعتمَد عليها للحكماء المحققين من المتقدمين والمتأخرين... فلما وصلت بقدر جهدي لتدقيقات عباراتهم... أدمتُ المدارسة العلمية مع أهلي... إلى أن حصل عندي أصل الطب بالتجارب الكثيرة، وظهر لي قدرةُ الإقدام على علاج الأمراض الخطيرة، سيما الداء العضال المسمى بالوباء والطاعون الأليم، المنبعث سريعًا بالأهوية المتعفنة في هذا الإقليم، ولم نقدر على إتيان شكر هذه النعمة العظيمة... غير أن أجمع أوراقًا أبيّن فيها بالخصوص باعث تلك الأمراض المخصوص... وكتبت رسالة بها يتفوّح للروح ريح الصبا مسماة بمجنة الطاعون والوبا، وبيّنت فيها أسبابهما وعلاماتهما وطرق علاجهما ومداواتهما...

الأبواب والمباحث الداخلية الواردة في المخطوط

الباب الأول: في تعريف الوباء والطاعون وأسبابهما.

الباب الثاني: في علاماتهما.

الباب الثالث: في حفظ الصحة وقت حدوثهما.

الباب الرابع: في بيان علاج الطاعون والمحموم والوباء.

المباحث الواقعة في هذه الرسالة من الطاعون

المبحث الأول: هل الأجرام السماوية وقوة الكواكب سبب الحماء الوبائية أم لا؟

المبحث الثاني: هل الشهب والصواعق وعمود النار المرئي في الهواء علامات الطاعون أم لا؟

المبحث الثالث: هل يحصل العفونة في الهواء بحسب طبيعته أم لا؟

المبحث الرابع: هل الحمى الوبائية مندرج تحت الحمى اليومية أو تحت العفنية أم لا؟

المبحث الخامس: هل الروح الحيوانية متولد من القلب وفي القلب أم لا؟

المبحث السادس: هل يمكن أن يكون الشخص فقط محمومًا بالحمى الوبائية وما عداه سالـمًا؟

المبحث السابع: هل الذي منافذه واسعة ويداوم الاستحمام أقل للحماء الوبائية أم لا؟

المبحث الثامن: هل يتخالف النبض والبول كثيرًا في الحماء الوبائية أم لا؟

المبحث التاسع: كيف الفصل أقبل للحماء الوبائية من فصول السنة؟

المبحث العاشر: هل الفصد يكون مفيدًا للحماء الوبائية أم لا؟

المبحث الحادي عشر: هل الخل وسائر الحوامض مفيد في زمان الحمى الوبائية أم لا؟

المبحث الثاني عشر: هل يفيد استعمال الترياق الفاروق في زمان الحمى الوبائية أم لا؟

آخر خاتمة المؤلف

وأما ما كان مزاجه صحيحًا عاريًا من كل العفونة يضرّه الترياق الفاروق، وتطويل هذا البحث مذكور في شرحنا في كتاب الرابع من القانون لأبي علي، والله أعلم... تم المقال، تمت هذه الرسالة الموسومة بمجنة الطاعون والوباء بعون الملك... للفقير الحقير الشهير بإلياس بن إبراهيم اليهود... في قسطنطين المحمية... في أوائل شعبان المعظم من شهور سنة خمس عشر وتسعمائة، تم.

خاتمة الناسخ

تمت هذه الكتابة بيد محمد الطبيب المحتاج إلى رحمة الله... في ولاية بودين في أواسط شعبان المعظم من يوم دوشنبه[٤١] سنة ست وتسعين وتسعمائة.

(٤١) اسم مشتق من اللغة الطاجيكية، أي يوم الإثنين، نسبةً للسوق الذي كان يقام في البلد كل يوم إثنين.

(ب) نسخة تشستربيتي

نسخة جيدة، كتبها السيد مصطفى المتطبب، بقلم رقعة، في سنة إحدى عشرة ومائة وألف هجرية على ما ورد في بطاقة الفهرسة الخاصة بالمكتبة. وحيث إنها ضمن مجموعة من (١٨٥ب – ٢١٦ب) ذُكر بالمخطوطة التي قبلها اسم الناسخ وتاريخ النسخ، وهي منسوخة بنفس الخط وعدد السطور، وهذا يؤكد أنها لنفس الناسخ، رقم الحفظ بالمكتبة ٣٦٧٦ م. ك. مج ٦، تضم المخطوطة واحدًا وثلاثين ورقة (الورقة صفحتان) من القطع المتوسط، وتضم كل صفحة ستة عشر سطرًا، ويضم كل سطر سبع كلمات تقريبًا، كتبت العناوين بقلم مغاير، ومن ثم فهي غير واضحة في بعض المواضع في النسخة المصورة.

(٥) سمات المنهج

(أ) التجريب(٤٢)

يعد التجريب من المعايير المهمة في فكر العالم، وبقدر اعتماد العالم على التجريب بقدر ثقة الآخرين فيه؛ فهو مثلًا لا يقبل رأي الآخرين -سواء السابقين أو المعاصرين له- إلا بعد أن يتأكد من صحته بالتجربة، وهو لا يقدم نتيجة علمية توصَّل إليها إلا بعد أن يتأكد من صحتها بالتجربة وهكذا، ونجد إلياس الإسباني يؤكد على ذلك بقوله:

(٤٢) التجربة: فِعلٌ تحصل به المجربات، وهي القضايا التي يحتاج العقل في جزم الحُكم بها إلى واسطة تكرار المشاهدة، ولا يقال إلا في التأثير والتأثر، وبملاحظاتها مرارًا يحصل لمشاهدها العلم التجريبي، ويقال للتجربة كلية عندما يتكرر وقوعها بحيث لا يحتمل معه اللاوقوع.
والمجربات الكلية من أقسام اليقينيات الضرورية، والتجربة بالمعني العام يقال لها خبرة، والمعنى الخاص هي التجربة العلمية التي تتم بشروطٍ معينة تسمى الطريقة أو المنهج التجريبي، وهو يقوم على الملاحظة والتصنيف والفرض والتحقيق، وتسمى مجربات التجربة العلمية علومًا تجريبية لاعتمادها على التجريب.
يعرفه المسعودي بأنه: ما تفعله الطبيعة في الصحيح والمريض من الرعاف والعروق والإسهال والقيء التي تعقب في المشاهدة منفعةً أو ضررًا. (مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، شرح وتقديم د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت – لبنان: ١٧٣؛ المعجم الفلسفي، د. عبد المنعم الحفني، الدار الشرقية للطبع والنشر، ط١، القاهرة، ١٩٩٠م: ٥٣.
لمزيد من التفصيل، راجع: الموسوعة الفلسفية العربية، د. محمود فهمي زيدان وآخرون، رئيس التحرير د. معن زيادة، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٦م، المجلد الأول (الإصطلاحات والمفاهيم)، مادة تجربة: ٢٣٢، ٢٣٣.

«فلما وصلت بقدر جهدي لتدقيقات عباراتهم وتعمقات إشاراتهم، أدمت المدارسة العلمية مع أهلي، وأدمنت الممارسة العملية لإزالة بقية جهلي، إذ العملي لا ينكشف إلا بمزاولة العمل، وترك التواني والكسل، إلى أن حصل عندي أصل الطب بالتجارب الكثيرة، وظهر لي قدرةُ الإقدام على علاج الأمراض الخطيرة، سيما الداء العضال المسمى بالوباء والطاعون»[٤٣].

كما جعل العمل والتجريب شرطًا للوصول إلى العلم الحقيقي، والوصول إلى أصل الطب لا يكون إلا بالتجارب الكثيرة، وهو السبيل إلى القدرة على معالجة الأمراض الخطيرة.

وفي موضع آخر يؤكد على صحة أن الهواء المستور أصلح من المكشوف بالتجربة بقوله: «إن الهواء في زمن الهواء الحادث... إذا كان مستورًا أصلح من الهواء المكشوف حتى وجدنا في تجربتنا في ذلك الزمان أن مَن كان في قعر السجن يتخلّص ولا يفسد»[٤٤].

وفي موضع آخر بعد أن أورد إلياس بن إبراهيم كلامًا شافيًا في حفظ الصحة في زمن الوباء والطاعون لأبقراط، يؤكد ما ذكر أن جربه هو ونفع نفعًا عظيمًا، فيذكر: «وأنا أيضًا عملتُ في بلدنا بولي[٤٥] هكذا نفع نفعًا عظيمًا»[٤٦].

وفي موضع آخر يؤكد إلياس بن إبراهيم على أن النتائج التي يتوصل إليها تكون معتمدة بعد التجارب والممارسات، وهو دليل مهم على اعتماده على التجريب في تأليفه لهذه الرسالة المهمة، فيذكر: «فأنا أقول لما تصفحت كتب هؤلاء الأفاضل، واطلعت على ما أودعوه فيها من المعالجات، وزدت عليها أمورًا وجدتها بالتجارب والممارسات؛ فلا جرم أني وضعت هذه الرسالة لمصلحة العامة»[٤٧].

وبتحليل الفقرة السابقة يتضح

(١) أن إلياس بن إبراهيم اطلع على المؤلفات السابقة عليه في موضوع الطاعون والوباء.

(٤٣) **المجنة في الطاعون**، (ق ٢أ، ب).
(٤٤) **المجنة في الطاعون**، (ق ٦ب، ٧أ).
(٤٥) تقع في إيران.
(٤٦) المصدر السابق، (ق ١١ب).
(٤٧) النص، نسخة مكتبة تشستربيتي، رقم ٣٦٧٦، (ق ١٩٣ب، ١٩٤أ).

(٢) أنه في مؤلَّفه هذا زاد على هذه المؤلَّفات أمورًا وجدها، وتأكد من صحتها بالتجارب والممارسات.

(٣) أن تأليفه لهذه الرسالة جاء للكل؛ الغني والفقير وجميع الشعوب، فهي ذات نظرة شمولية.

وفي موضع آخر يؤكد إلياس بن إبراهيم قيامه بالتجريب في مدينتي، وهو ما يؤكد تفهمه الشديد لأثر البيئة والجو في صحة الإنسان، مما دعاه إلى تكرار التجربة مرات كثيرة في مدينتي، فيذكر: «ولقد جرّبتُ هذا في إسبانيا ونابولي مراتٍ كثيرة، فنفع نفعًا عظيمًا»[٤٨].

وأورد إلياس بن إبراهيم صفة معجون يسمى فاذزهر[٤٩] كان يقدَّم للسلاطين، وهو مقوٍّ جدًّا ونافع، وجرّبه هو ليتأكد من صحة ذلك، فيقول: «وقالت النصارى ليس معجونًا مجرّبًا مثل هذا، وعَلمنا هذا بالتجربة»[٥٠].

ويذكر إلياس بن إبراهيم: «وأقول أن هذا السفوف الذي سأذكره يوافق الطاعون والوباء، وقد جرّبت مرارًا كثيرة»[٥١]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه كان يتأكد من صحة النتائج بتكرار التجربة.

(ب) الموضوعية

تظهر الموضوعية عند إلياس بن إبراهيم الإسباني في أثناء عرضه لآرائه العلمية؛ فنجده يذكر أسماء العلماء وعناوين المؤلفات المهمة والشهيرة في علم الطب[٥٢]، دون النظر إلى ديانة هذا العالم أو ذاك، وبعد أن انتهى ذكر عبارة: «وغيرهم من اليهود والنصارى»[٥٣].

(٤٨) **المجنة في الطاعون**، (ق ١٢ب، ١٣أ).

(٤٩) أوردها ابن سينا ضمن الأدوية التي تعارض السموم فلا تدعه يصل إلى القلب، في فصل خاص بذلك تحت عنوان: فصل في أدوية مشتركة للسموم. (القانون في الطب، ابن سينا، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج٣: ٢٨٤).

(٥٠) **المجنة في الطاعون**، (ق ١٣ب).

(٥١) **المجنة في الطاعون**، (ق ١٨ب).

(٥٢) راجع النص الوارد في أسماء المؤلفات البند الأول، فلم نُرد تكراره.

(٥٣) **المجنة في الطاعون**، (ق ٢أ).

وفي موضع آخر بعد أن يورد الأسباب التي جعلت ابن سينا يكتب بإيجاز عن علاج مرض الطاعون من وجهة نظر الأطباء النصارى، يذكر إلياس الإسباني الأسباب الأخرى التي هو مقتنع بها ويراها صحيحة، فيذكر: «وأما عند الفقير، فالجواب أن الشيخ أبا علي ابن سينا لكثرة علمه ولطافة عقله، رأى أن في علاج هذا المرض كان جميع الأطباء مثل الأعمى، ومن أول يوم خلق الدنيا لم يوجد الإنسان يعلم علاجه بالذات وبالحقيقة، ويكون ذلك العلاج مفيدًا لجميع الإنسان كما رُوي عن داود عليه السلام، جميع الأطباء في علاج الطاعون مثل الأعمى؛ ولذلك كتب أبو علي ابن سينا قليلًا؛ لأن ذلك المرض قريب من الروحاني المذكور في الباب الأول»(٥٤).

أي إن ابن سينا كتب باختصار في علاج الطاعون؛ لأنه عقاب من الله، ولا سبيل للشفاء منه إلا بالعودة إلى الله عز وجل، كما ذكر إلياس الإسباني في الباب الأول في أسباب الطاعون.

(ج) الأمانة العلمية

تتجلى الأمانة العلمية عند إلياس بن إبراهيم الإسباني في ثنايا بحثه، إلا أنها ظهرت جلية واضحة في ذكره لثَبْت المؤلفات التي اعتمد عليها في دراسته وتأليفه لهذه المخطوطة، فيذكر: «ومطالعة الكتب المعتمَد عليها للحكماء المحققين من المتقدمين والمتأخرين مثل كتاب فيديميا، وكتاب الأمراض الحارة، وكتاب تقديم المعرفة لأبقراط، وكتاب أصناف الحميات، وكتاب صناعات الكبير، وكتاب الأغذية لجالينوس، وكتاب الحميات لإسحاق اليهودي، والحاوي لزكريا الرازي، ورسائل مروان بن زهر، وقانون الشيخ، وكليات ابن رشد الفاضل القرطبي، وكتب غيرهم من اليهود والنصارى»(٥٥).

(٥٤) المصدر السابق، (ق ١٤ب، ١٥أ).

(٥٥) المصدر السابق، (ق ١ب، ٢أ).

(٦) أسباب الطاعون والوباء

لخص إلياس الإسباني أسباب الطاعون والوباء في مخطوطته مجنة الوباء والطاعون في أربعة أسباب هي:

(أ) **اقتران العلويات**: والمقصود بالعلويات الكواكب، واقتران هذه الكواكب يحدِث الوباء والطاعون، فيذكر: «وأسبابهما أربعة، أحدها قران العلويات مثل مقارنة الزحل بالمرّيخ؛ لأنه يقع في أوانها وباء عظيم»(٥٦).

(ب) **الأسباب الأرضية**: «كالجيف الكثيرة الواقعة حوالي البلد، والماء الراكد فيه؛ لأنهما تفسدان جوهر الهواء ويعفّنان، كما قال جالينوس إن في الهند وقع جرب عظيم، وقتل كثير من الناس بحيث يتعذّر دفن أبدانهم، فتعفّن الهواء، وحدث وباء شديد في جميع المعمورة. ثم قال جالينوس: إذا حدث هذا الوباء كان يعرض لشخص ثم يردّ إلى الصحة، فيحصل له نسيان عظيم بحيث ينسى هذا الشخص اسمه وابنه وامرأته وصديقه»(٥٧).

(ج) **الزلازل والشهب والأكوان**: وأرجع إلياس الإسباني سبب الطاعون من وجهة نظره إلى الأهوية المتعفنة المنبعثة في الإقليم الذي ينتشر فيه الطاعون والوباء، فيذكر: «سيما الداء العضال المسمّى بالوباء والطاعون الأليم، المنبعث سريعًا بالأهوية المتعفنة في هذا الإقليم»(٥٨).

ثم عاد وتحدث عن سبب الطاعون بالتفصيل، فيذكر: «إني ما ألّفتُ هذه الرسالة، وما كتبت هذه المقالة من غلبة الغرور والتكبر... وإنما دعاني إلى ذلك أمران؛ **أحدهما**: أني لما شاهدت ما وقع في زماننا هذا من الزلزلة العظيمة، خِفت من أن يردفها ويعقبها وباءٌ وطاعون، بناءً على ما قاله رئيس الفلاسفة أرسطو في مقالة الزلزلة؛ أن سبب الزلازل هو خروج الرياح المحتبسة تحت كرة الأرض الحادثة من الأبخرة الغليظة والأدخنة الخبيثة، فإنه إذا حدثت تلك الرياح تحت

(٥٦) المجنة في الطاعون، (ق ٧ب).
(٥٧) المجنة في الطاعون، نسخة تشستربيتي، (ق ١٩٤ب).
(٥٨) المجنة في الطاعون، (ق ٢ب).

الأرض واحتبست اقتضت طبيعتها الحركة إلى العلو؛ بسبب ميلانها إلى كرة الهواء الكائنة فوق كرة الأرض وكرة الماء. فتضطربُ[٥٩] تلك الرياح للخروج فتحرك الأرض وتشقها فتخرج، فإذا خرجت فبسبب غلظتها تُغيِّر الهواء وتفسده، وتخرِجه عن طبيعته، وتجعله غليظًا... ويقول الفقير هذا ليس ببعيد؛ لأنه قد اتفقت الحكماء والأطباء على أنه إذا ظهر في الهواء عمودٌ من النار وغلظ الهواء وكثر الضباب، يخاف أن يقع الطاعون؛ لأن هذه من علامات الطاعون... فثبت أن الزلزلة مما يحصل عقيبها الطاعون، فكتبت هذه الرسالة»[٦٠]...

وثانيهما: أني وجدت «أطباء هذه الديار لا يعالجون مرض الطاعون إلا قليلًا ولا يلتفتون إليه... إلا متكاسلًا، ويعدون الخلاص من هذا المرض أمرًا ممتنعًا محالًا. وإني أيضًا لا أشك في أن هذا المرض مُشْكِل وعلاجه صعب، لكن الخلاص منه ممكن؛ لأني عالجت هذ المرض مرارًا على ما تلقيته من الأطباء المهرة، فعوفي بإذن الله تعالى»[٦١].

اتفق إلياس بن إبراهيم اليهودي فيما أورده سابقًا مع ما ذكره كشاف اصطلاحات الفنون في تعريفه للوباء فيذكر: «الوَباء (Epidemic, Plague): بالفتح، وتخفيف الموحدة، ومَدّ الألف وقصرها، وَبَاءٌ عامٌّ، وهو الذي يقال له مركامركي: الموت العام. وقال الأطباء هو فسادٌ يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية أو أرضية كالماء الآسن والجيف، والمراد بفساد الهواء أنْ يصير حقيقته غير صالحة لما أوجدت له من إصلاح جوهر الروح، ودفع الأبخرة، وتغذي الأبدان، وهو تعفُّن يعرض له بشبهة تعفن الماء المجتمع المتغيّر، وهذا الهواء ليس بسيطًا، فلا يرد أنَّ البسيط لا يتعفَّن. وقيل الوباء هو الطاعون كذا في الأقسرائي وبحر الجواهر»[٦٢].

(د) أرسله الله لتأديب العُصاة: أرجع إلياس بن إبراهيم السبب الحقيقي لحدوث الوباء إلى تأديب العصاة، وأخذ يورد آراء الحكماء، ويورد عناوين مؤلفاتهم، فيذكر: «بل الله تعالى أرسل

(٥٩) هكذا في المخطوط، والأصوب: فتضطر.

(٦٠) **المجنة في الطاعون**، (ق ٤ب، ٥أ، ب).

(٦١) تم استكمال باقي النص من نسخة تشستربيتي، (ق ١٩٣أ، ب).

(٦٢) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق د. علي دحروج، نقل النص الفارسي للعربية د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية د.جورج زيناتي، تقديم وإشراف ومراجعة د. رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م، ج٢: ١٧٥٣.

هذا المرض لتأديب العُصاة؛ لأن يرجع إلى الله تعالى، وهو السبب الحقيقي، كما قال الفاضل أشيدروس في كتاب صورة العالَم، وعرّف الوباء: بأنه مرض مخصوص مجهول مرسل من الله تعالى إلى العالَم، وكذلك وجدنا في توراة موسى وزبور داود عليهما السلام: في كل زمان إذا أراد الله تعالى أن يعذب العصاة يرسل بالخصوص مرض الطاعون»(٦٣).

ونجده يذكر بعض الأدلة النقلية فيذكر: «كما قال يحيى -عليه السلام- لا تخافوا من العلامات العلوية والآفات السماوية، إن كنتم تسلكون إلى طريق الهداية الإلهية»(٦٤).

(٧) حفظ الصحة في زمن الوباء

أورد إلياس بن إبراهيم كلامًا رائعًا في حفظ الصحة زمن الوباء والطاعون، مبتدئًا برأي الأطباء من النصارى واختتم برأي أبقراط، فيذكر: «في حفظ الصحة عن الوباء والطاعون وقت حدوثهما، قال الأطباء من النصارى: ينبغي أن يفرّ من البلاد التي وقع فيها الطاعون والوباء، واستدلوا من هرب الطيور والحيوانات الزكية من موضعها لأجل العفونة، وسكونها في موضع لا يكون العفونة فيه.

وقال: إن الحيوانات مع عدم عقله هربت من هذه العفونة، فبالأولى أن يهرب الإنسان؛ لأنه عاقل متصرف في الكليات والجزئيات. وإن تعذر الهرب فينبغي لهم أن يجلس في مكانٍ عالٍ بابه مفتوح إلى الشمال، ويرشّ في البيت ماء وخل، ويمسك في يده خرقة مبلولة بالخل والماء»(٦٥). وأكد على أن يكون الباب مفتوحًا جهة الشمال، وذلك لتلقي الرياح الشمالية الخالية من أي تلوث، وأن يرش في البيت الماء والخل كنوع من التطهير للمكان الذي يعيش فيه الإنسان، وكذلك القطعة المبللة بالماء والخل لتطهير أي هواء داخل إلى رئة الإنسان، وهي تقوم مقام الكمامة في الوقت الحالي.

(٦٣) **المجنة في الطاعون**، (ق ٧ب، ٨أ).
(٦٤) المصدر السابق، (ق ٨ب).
(٦٥) المصدر السابق، (ق ٩ب).

ويعرض إلياس بن إبراهيم الإجراءات الواجب اتباعها لحفظ الصحة في الطاعون والوباء سواء في المأكل أو المشرب أو الخروج من المنزل والعودة إليه إلى غير ذلك، وينهي حديثه بكلام لأبقراط، يذكر فيه:

«وينبغي أن يُحرق في البيت أو في البلد الحطب الواقعة للعفونة، مثل ورق الغار والأبهال والكيل والحيل وورق السرو والصنوبر، كما قال أبقراط: إنّ في زماننا حدث الطاعون الشديد في أكثر المعمورة، وأمرتُ أن يُحرق الحطب الدافع للعفونة حول المدينة، فخلص البلد بهذا العمل، ومع هذا لا يبقى أحد في غير هذا البلد، هذا تمام كلامه»[٦٦].

(٦٦) المصدر السابق، (ق ١١أ).

الخاتمة ومستخلصات البحث

دائمًا ما تختتم المؤلفات العلمية والأبحاث الأكاديمية بالنتائج التي توصل إليها الباحث في نقاط محددة، ومن هذا المنطلق آثرت هنا أن أضع خلاصة ما توصلت إليه في بحثي هذا، عسى أن يكون إجابة شافية وافية للأسئلة التي كانت تدور في ذهني حول هذا العالم ومؤلفاته. فلقد جال في خاطري بعض التساؤلات منها -على سبيل المثال لا الحصر- لماذا لم يلتفت أحد من قبلُ إلى إلياس بن إبراهيم اليهودي؟ هل السبب أنه عالم غير مسلم أو لا؟! ولكنه عاش في ظل وأكناف الحضارة العربية الإسلامية، وألَّف العديد من المؤلفات، وجميعنا يعلم أن الحضارة العربية الإسلامية ضمت بين جنباتها علماء مسلمين وغير مسلمين، منهم على سبيل المثال لا الحصر: حنين بن إسحاق، وإسحاق بن حنين، وحبيش الأعسم، ومنهم علماء ألّفوا باللغة العربية وغيرها من اللغات الأخرى كالتركية والفارسية.

قد يكون الدين سببًا، ولكنه ليس السبب الرئيس، فمن وجهة نظري أننا بحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة حول إسهامات العلماء العرب والمسلمين، والمقصود بهؤلاء العلماء هم جميع العلماء الذين عاشوا أو ألّفوا في كنف الحضارة العربية الإسلامية، أو ألفوا باللغة العربية، أو كانت لهم صلات قريبة أو بعيدة بالحضارة العربية الإسلامية، سواء تأثروا بها أو أثروا فيها، كما أننا بحاجة إلى دراسة مؤلفاتهم، فقد تحتوي على نظريات أو أفكار أو آراء شارحة لبعض المؤلفات، زمن ثم تفتح الباب أمام الباحثين العرب والمستشرقين، فتكشف اللثام عن أشياء كان يصعب فهمها أو يستحيل دون الاطلاع على هذه الآراء.

وتلخيصًا للنتائج التي توصلت إليها في بحثي هذا، وردًّا على الأسئلة المطروحة في ذهني قبل البحث، جاءت النتائج التالية:

(١) اسم عالمنا هذا بعد البحث هو: إلياس اليهودي ابن إبراهيم الإسباني، وهو من القوقاز، ولم تُشر المصادر عن سبب نسبته بالإسباني؛ هل لأن أحد جدوده من إسبانيا أو لأنه زار إسبانيا وعاش بها فترة، كما ذكر هو نفسه في أثناء حديثه عن علاجه لحالات الطاعون هناك؟

(٢) ورد في ثنايا المخطوط أن إلياس بن إبراهيم الإسباني له العديد من المؤلفات لم تكشف عنها فهارس أو فهرسة المكتبات بعد، وهي قضية مهمة للغاية، فيجب ألا نجزم أن هذا المخطوط مفقود أو موجود إلا بعد أن ننتهي من فهرسة جميع مكتبات المخطوطات. وإذا لم يكن بد من الإشارة إلى أحد المؤلفات، فلا بد أن نشير إلى أنها موجودة إذا كانت هناك نسخة أو نسخ خطية موجودة، وإذا لم نجد فعلينا أن ننوه على حسب ما هو موجود في فهارس المخطوطات المتاحة حتى الآن. ومن ثم، فما لدينا حتى الآن من مؤلفاته هو مخطوط «المجنة في الوباء والطاعون»، وتوجد منه نسختان؛ الأولى هي من ممتلكات مكتبة شخصية، وتم تحميلها من شبكة المعلومات الدولية[٦٧]، وقد قمت ببحثي ودراستي على هذه النسخة، والنسخة الأخرى هي نسخة مكتبة تشستربيتي برقم ٣٦٧٦، ورجعت إليها في المواضع التي نقصت الأوراق في النسخة الأولى، وقد أشرت إلى ذلك في موضعه.

(٣) من الأمور الهامة -أي الجالبة للْهُمَّ- والمهمة التي يجب الاعتناء بها، أن النسختين اللتين اعتمدتُ عليهما في الدراسة لهذه المخطوطة؛ إحداهما من مقتنيات مكتبتي الشخصية، والنسخة الثانية من مقتنيات مكتبة تشستربيتي، ومن ثم وجب علينا الاهتمام بالمكتبات الشخصية، وكذلك المكتبات التي في الغرب، وبذل قصارى الجهد في استعادة مثل هذه الكنوز التراثية المخطوطة المهمة إلى بلداننا العربية.

(٤) ظهرت ملامح المنهج واضحة جلية في هذا المخطوط، مما يؤكد اعتماد إلياس بن إبراهيم الإسباني عليه سواء في الموضوعية؛ حيث إنه كان يتحدث بموضوعية شديدة، ولا يخلط بين الآراء العلمية ومرجعية العالم الدينية. وكذلك في التجريب؛ حيث كان لا يقبل بصحة آراء سابقيه إلا بعد أن يقوم بالتجريب بنفسه، ويتأكد من ذلك مرارًا. والأمانة العلمية، وظهر ذلك من بداية المخطوطة؛ حيث عرض للمؤلفات التي اعتمد عليها في تكوين معارفه الطبية عن الوباء والطاعون، كما ظهرت الأمانة العلمية في عرضه للآراء العلمية ونسبة كل رأي إلى صاحبه من العلماء.

(٦٧) أهداني هذه المخطوطة أخي وصديقي الدكتور رضا الحسيني، فله مني كل الحب والتقدير، جعلها الله في ميزان حسناته إلى يوم الدين.

(٥) استطاع إلياس بن إبراهيم أن يحصر الأسباب الأربعة لحدوث الوباء والطاعون، وهي: (أ) اقتران العلويات، (ب) الأسباب الأرضية، (ج) الزلازل والشهب والأكوان، (د) أرسله الله لتأديب العُصاة. ويدل شرحه الموجز لهذه الأسباب على امتلاكه لمعارف علمية فلكية جمّة.

(٦) تحدث إلياس بن إبراهيم عن حفظ الصحة في زمن الوباء والطاعون، فأورد نصائح هي أقرب ما تكون متَّبَعة في الوقت الحاضر، وذلك دليل على تفهمه الشديد لطبيعة هذا الوباء والطاعون.

(٧) من الأمور المهمة في هذه المخطوطة أنها تضم بين طياتها شهادة حق من الأطباء النصارى على اهتمام الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا المتوفى ٤٢٨ هجرية؛ بالتجريب، وأنه كان لا يكتب علاج الأمراض إلا بعد تجريب العلاج وتتبع أحوال المريض. وهو خير رد على ما يزعمه بعض المستشرقين من أن المنهج التجريبي وليد العقول الأوروبية، ونتاج الحضارة الغربية المعاصر، وهو في حقيقته رأي به كثير من الإجحاف للعلماء العرب والمسلمين، ولإسهاماتهم العلمية.

المصادر والمراجع

- **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ج٢.
- **الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط**، علي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط١، مصر، ١٤٢١ه/ ٢٠٠١م.
- **القانون في الطب**، ابن سينا، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠ه/ ١٩٩٩م، ج٣.
- **كتاب الماء: أول معجم طبي لغوي في التاريخ**، أبو محمد عبد الله بن محمد الصحاري الأزدي، حققه د. هادي حسن حمودي، وزارة التراث القومي والثقافة، ط١، سلطنة عمان، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م، ج١.
- **لسان العرب**، ابن منظور، طبعة اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ج١٣.
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، شرح وتقديم د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت - لبنان.
- **المعجم الفلسفي**، د. عبد المنعم الحفني، الدار الشرقية للطبع والنشر، ط١، القاهرة، ١٩٩٠م.
- **معجم المؤلفين**، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤ه/ ١٩٩٣م، ج٣.
- **معجم المصطلحات العلمية في التراث الإسلامي**، د. أحمد فؤاد باشا، مركز تحقيق التراث العربي، ط١، القاهرة، ١٤٣٤ه = ٢٠١٣م.
- **مفاتيح العلوم**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، تقديم د. جودت فخر الدين، دار المناهل، ط١، بيروت - لبنان، ١٤١١هـ= ١٩٩١م.
- **الموسوعة الفلسفية العربية**، د. محمود فهمي زيدان وآخرون، رئيس التحرير د. معن زيادة، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٦م، المجلد الأول (الإصطلاحات والمفاهيم).

- **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد علي التهانوي، تحقيق د. علي دحروج، نقل النص الفارسي للعربية د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية د. جورج زيناتي، تقديم وإشراف ومراجعة د. رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م، ج٢.
- **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، إسماعيل باشا البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م، ج١.

ملحق نماذج المخطوطات

36

المزاج الصحيح ولكن في زمان الحمى الوبائية
يكون مزاج جميع الناس متعفنة من الهواء فيزيل
ما يوجد من العفونة فيكون مفيدًا واما اذا كان
مزاجه صحيحًا عاريًا من كل العفونة يضره الترياق
الفاروق وتطويل هذا البحث مذكور
في شرحنا في كتاب الرابع
من القانون لابي علي
والله اعلم بحقيقة الحال
تم المقال

تمت هذه الرسالة الموسومة بجنة الطاعون والوباء
بعون الملك العظيم الآلاء للفقير الحقير الشهير بالياس
ابن ابراهيم اليهود ارشد الله العزيز الودود في قسطنطين
المحمية عن البلايا الى يوم الموعود
في اوائل شعبان المعظم من شهور
سنة خمس عشر وتسعمائة

910

م

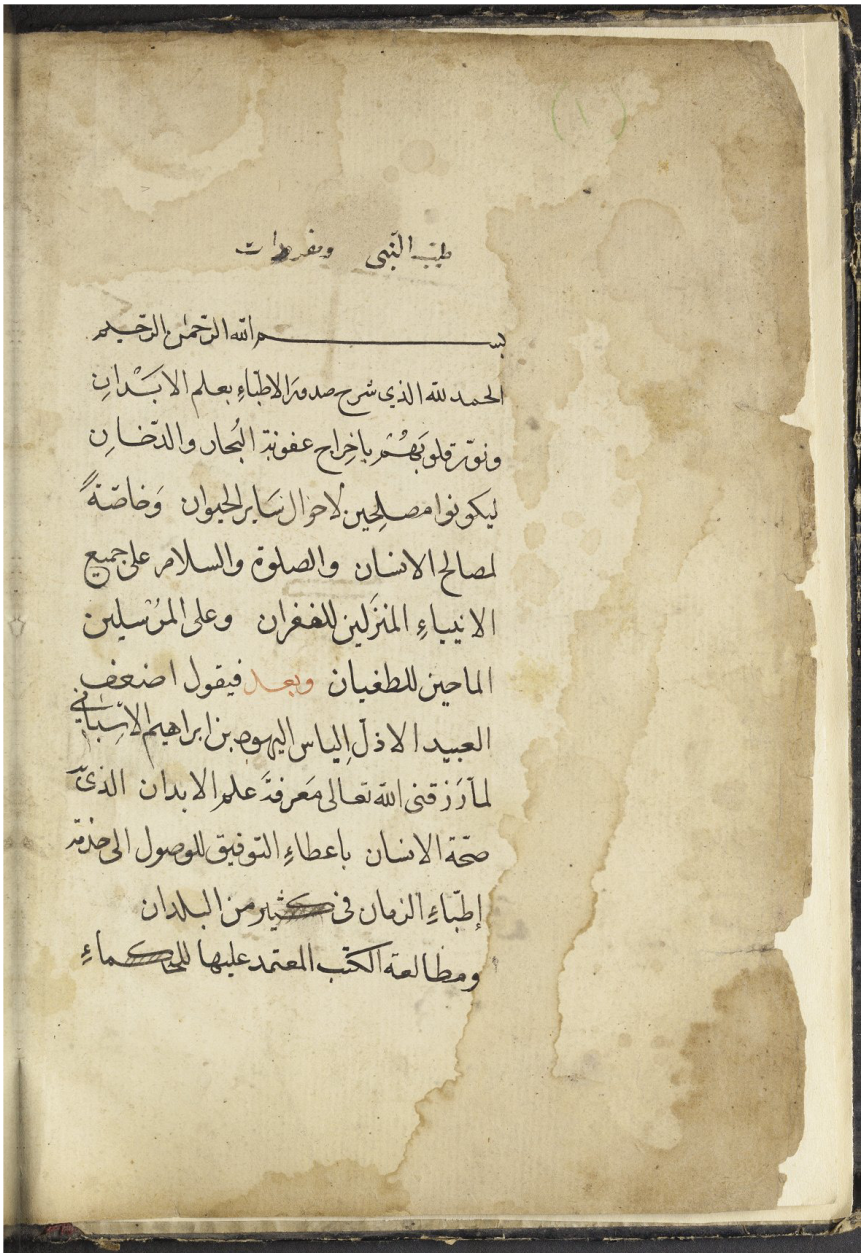

طب النبي ومفرداته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرح صدور الأطباء بعلم الأبدان
ونور قلوبهم بإخراج عفونة البخار والدخان
ليكونوا مصلحين لأحوال سائر الحيوان وخاصة
لصالح الإنسان والصلوة والسلام على جميع
الأنبياء المنزلين للغفران وعلى المرسلين
الماحين للطغيان وبعد فيقول الضعيف
العبيد الأذل إلياس اليهودي بن إبراهيم الأسباني
لما رزقني الله تعالى معرفة علم الأبدان الذي
صحة الإنسان بإعطاء التوفيق للوصول الى خدمة
أطباء الزمان في كثير من البلدان
ومطالعة الكتب المعتمد عليها للحكماء